

بسم الله الرحمن الرحيم

رياض الصالحين

بعض ما ورد عن السلف في باب قضاء حوائج المسلمين ٢

الشيخ: خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلوة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فمما ورد عن السلف رضي الله تعالى عنهم - في باب قضاء حوائج المسلمين ما جاء عن الشعبي - رحمه الله -، الإمام الحافظ الكبير وهو وعاء من أوعية العلم، يقول: ما مات ذو قرابة لي وعليه دين إلا وقضيت عنه، ولا ضربت مملوكاً لي قط، ومن باب أولى أن لا يكون قد ضرب زوجة أو خادماً، ولا حلت حبوتي إلى شيء مما ينظر الناس، وهذا يدل على كمال التعفف والتترze، أي: أنه ليس بصاحب طمع، كلما لاح له طمع، تحول إليه، ونهض إليه، وامتدت نفسه، واستشرفت كما يفعل بعض الناس، يقضي ديون الأقارب ولا يضرب مملوكاً، ولا حلت حبوتي إلى شيء مما ينظر الناس، وجاء عن عمرو بن دينار أنه قال: دخل علي بن الحسين زين العابدين، على محمد بن أسامة بن زيد، فجعل محمد يبكي فقال: ما شأنك، قال: علي دين، قال: وكم هو؟، قال: بضعة عشر ألف دينار، قال: فهي علي، ودخل دخل عطاء بن أبي رباح - رحمه الله - على عبد الملك بن مروان وهو جالس وحوله الأشراف، وذلك بمكة، في وقت حجه في خلافته، فلما بصر به عبد الملك، قام إليه وسلم عليه وأجلسه معه على السرير، وقعد بين يديه، وقال: يا أبا محمد، حاجتك، أي: سل حاجتك، قال: يا أمير المؤمنين اتق الله في حرم الله وحرم رسوله، فتعاهده بالعمارة، واتق الله في أولاد المهاجرين والأنصار، فإنك بهم جلست هذا المجلس، واتق الله في أهل الثغور، فإنهم حصن المسلمين، فإنك وحدك المسؤول عنهم، واتق الله فيمن على بابك، فلا تغفل عنهم، يعني أصحاب الحاجة، فقال: أفعل، ثم نهض وقام فقبض عليه عبد الملك، وقال: يا أبا محمد إنما سألتنا حوائج غيرك، وقد قضيناها بما حاجتك، قال: ما لي إلى مخلوق حاجة، ثم خرج، فقال: عبد الملك هذا وأبيك الشرف، هذا وأبيك السؤدد، أي: أنه كان يسعى في حوائج الناس، أما هو فغريب النفس، يقول: وعن عمرو بن أسد قال: والله ما مات عمر بن عبد العزيز حتى جعل الرجل يأتيه بالمال العظيم فيقول: اجعلوا هذا حيث ترون، فما يرجع حتى يرجع بمائه كلها، وقد أغنى عمر الناس، كان يتقدّمهم، تقول زوجته فاطمة: بأنها دخلت عليه فإذا هو في مصلاه يده على خده، سائلة دموعه، فقالت: يا أمير المؤمنين أشيء حدث، قال: يا فاطمة، إني نقلت أمر أمّة محمد - صلّى الله عليه وسلم - فتفكرت في الفقير الجائع، والمريض الضائع، والعاري المجهود، والمظلوم المقهور، والغريب المأسور، والكبير وذي العيال في أقطار الأرض، فعلمت أن ربي سيسألني عنهم، وأن خصمهم دونهم محمد - صلّى الله عليه وسلم -، فخشت أن لا تثبت لي حجة عند خصومته، فرحمت نفسي، فبكّيت، وكان شعبة بن الحجاج - رحمه الله - يعطي السائل ما أمكنه، وكان إذا قام سائل في مجلسه لا يحدث بالحديث وهو من أئمة السنة، حتى يعطى أو يضمن للسائل، وهذا آخر يقال له: أبو حمزة السكري، قيل له ذلك لعنوية حديثه، حديثه جيد، وهذه مواهب من الله - عز وجل -، لا شك أن الاكتساب له أثر في هذه القضايا، لكن من الناس

من يكون كذلك موهبة من الله -عز وجل-، تجد أحياناً أهل بيت كبيرهم وصغيرهم في غاية العذوبة في الحديث، وغاية التلطف مع الناس، وهو شيء وهبهم الله -عز وجل- لا يبلغ إلى هذا الحد بال التربية، لكن الناس منابت، ومن الناس من لا يبالي بالكلام، يرسل لا أقول السهام، بل الرماح، يطعن ويجرح ويؤذي ولا يبالي بأحد، سواء كان مازحاً أو جاداً، فهذا أبو حمزة السكري إذا مرض عنده أحد طلابه الذين يرحلون إليه، ينظر إلى ما يحتاجه من الكفاية، فيأمر بالقيام عليه، وكان الليث بن سعد له في كل يوم أربعة مجالس يجلس فيها، فهو إمام أهل مصر، وهو نظير الإمام مالك -رحمه الله-، أما أول هذه المجالس فيجلس لنائب السلطان في نوابه وحوائجه، وكان الليث يغشاه السلطان، فإذا أنكر من القاضي أمراً أو من السلطان كتب إلى أمير المؤمنين، ففيأته العزل لهذا النائب، أو القاضي، ويجلس المجلس الثاني لأصحاب الحديث يحدث العلم، وكان يقول: نجح أصحاب الحوانين، فإن قلوبهم معلقة بأسمائهم، ومجلس للعامة يغشاهم الناس ويسألونه، ويعطيهم حوائجهم لا يسأله أحد فيرده، سواء كبرت حاجاته أو صغرت، وكان يطعم الناس في الشتاء الهراءس بعسل النحل، وسمن البقر، وفي الصيف سويق اللوز في السكر، وجاء رجل إلى ابن المبارك أن يقضي ديناً عليه فكتب إلى وكيل له، فلما ورد عليه الكتاب قال له الوكيل كم الدين؟ فقال: سبعمائة من الدرهم، وإذا بعد الله بن المبارك كتب خطأ أن يعطي سبعة ألف، فراجعه الوكيل، وقال: هو طلب سبعمائة وأنت كتببت سبعة ألف بالخطأ، وقال: إن الغلات قد فنيت، فكتب إليه عبد الله إن كانت الغلات قد فنيت فإن العمر أيضاً قد فني، فأجز ما سبق به فلمي، ولم يقل خفت وهانت علينا، بل قال: أمض ما سبق، وكان ابن المبارك -رحمه الله-، كثير التردد إلى طرطوس، وكان ينزل الرقة في خان، والخان مكان الاستراحة، فكان أحد الشباب يتتردد عليه إذا جاء إلى هذا المكان، ويقوم بحوائجه، ويسمع منه الحديث، فقدم عبد الله مرة فلم يره، فخرج في النفير مستعجلًا ويدهب إلى الشغر يجاهد، فلما رجع سأله الشاب فقالوا: محبوس على عشرة ألف درهم، فاستدل على الغريم وزن له عشرة ألف، وحلفه أن لا يخبر أحداً ما عاش، فأخرج الرجل، وسرى ابن المبارك، مشي في الليل، فلحقه الفتى على مرحلتين من الرقة، فقال له: أين كنت؟ فقال: يا أبا عبد الرحمن كنت محبوساً بدين، قال: وكيف تخلصت قال: جاء رجل فقضى ديني ولم أدربي، قال: فاحمد الله، وما علم أن ابن المبارك هو الذي قضى دينه، وهذا محمد بن عبد الرحمن الهاشمي خطيب الكوفة، يقول: دخلت على أمي يوم الأضحى، وعندها عجوز في أثواب رثة، أنظروا العبر وتصاريف الأمور، وكيف تحولت الأحوال بالناس، فالإنسان لا يغتر بما عنده من غنى وعرض زائل، يقول: عندها عجوز في أثواب رثة، قالت: هل تعرف هذه؟ قلت لا، قالت: هذه والدة جعفر البرمكي، وجعفر البرمكي كان وزيراً لهارون الرشيد، وكان في غاية الغنى، وكان يعطي الناس العطايا الجزلة، ثم بعد ذلك حصل لهم ما حصل كما هو معروف في التاريخ، يقول: فسلمت عليها، ورحت بها، وقلت: حدثنا ببعض أمركم، قالت: لقد هجم على مثل هذا العيد، وعلى رأسني أربعينية جارية، وأنا أزعم أن ابني عاق لي، قال: فأعطيتها خمسمائة درهم، فكادت أن تموت فرحاً، وكانت أصلاً تريد قطعتين من جلد الأضاحي، واحدة تتосدها وتتلام عليها، والثانية تلتحف بها، وكذلك بنات بعض ملوك الطوائف في الأندلس كما هو معروف، أن بعضهم لما أطلت زوجته تنظر من شرفة القصر، فمررت بائعات الحليب، قرويات يمشين في الطين والوحش، فلزيادة البطر والطغيان

عندما، أحبت أن تجرب المشي في الطين، فأمر فدق لها العود، وعجن، فوضع في صينية من ذهب، فصارت تمشي على العود المطحون كأنه طين، وقد جئن البنات إليه وهو في الحبس، وقد استولى الإفرنج على غرناطة، جئن إليه وهو محبوس، وكل واحدة معها مغزل في ثياب رثة، ووجوه شاحبة، يكتسبن بالغازل، يغزلن للناس، فانظر إلى التحول، وقالت له وزوجته في يوم من الأيام لما غضبت، ما رأيت منك شيئاً، قال: ولا يوم الطين، فالإنسان لا يغتر بما وقع في يده من هذه الدنيا وعرضها الزائل، فهي كثيرة التقلب و التحول بأهلها، كم من أنس أغنياء تحولوا إلى فقراء، أرهقتهم الديون، ولربما أودعوا السجون، وتحول ذلك البطر والطغيان إلى شيء آخر، ولا ترى إلا الوجوم والبكاء والحزن والحسرات.

نَسْأَلُ اللَّهَ -عَزَّ وَجَلَّ- أَنْ يَقِنَا وَإِيَّاكمْ كُلَّ مُكْرُوِّهِ، وَأَنْ يَحْفَظْ عَلَيْنَا دِينَنَا، وَدِنْيَانَا، وَأَنْ يَصْلِحْ لَنَا الْعَاقِبَةَ فِي الْأَمْرِ كُلَّهَا، وَأَنْ لَا يَحْوِجَنَا لِأَحَدٍ مِّنْ خَلْقِهِ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدَ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ.